رندة حيدر

التقنية في ٥ روايات عن فلسطين

« قضية فلسطين في الرواية العربية المعاصرة » هو عنوان الرسالة التي اعدتها الآنسة رندة حيدر لنيل شهادة الكفاءة في اللغة العربية وآدابها من كلية التربية في الجامعة اللبنانية . وقد نالت الكاتبة هذه الشهادة اخيرا بدرجة جيد جدا وهي في رسالتها تقصر دراستها على خمسة نماذج من الروايات العربية المعاصرة وتتناولها في مضمونها وشكلها .

وتنشر « الآداب » هنا الفصل المتعلق بالجانب التقني من هذه الروايات ـ النموذج .

قبل الدخول في الحديث عن الطبيعة التقنية للرواية التي تحدثت عن النكبة ، لا بد من تحديد اولي لنوعية تجربة الخلق القصصي ، فالفن الروائي فن بسيط ولكنه في الوقت نفسه من اكثر الفنون الخلاقة صعوبة ذلك ان خلق عالم ليس بالامر الهين الا لمن اوتوا الموهبة .

« وهكذا يمكن القول بان الرواية عمل او درام يجري في الزمان ويقع في المكان ويستمير منهما الوان الوسط وجوه المحدد ويخرج هذا الدرام اشخاصا يصور لنا اعمالهم وحركاتهم وانفعالاتهم . ولكن هذا الدرام وهؤلاء الاشخاص لا يتخذون « كثافتهم » ولا « كينونتهم » القصصية الا بابتعاد واع عن «الواقع الحاصل» وهكذا ترضي «احتمال الوقوع والقوانين العامة للانسانية والحياة لا الحقيقة التي هي ترادفا للواقع . ان القصاص يعيد دون ما انقطاع صنع العالم . »(١)

والفن القصصي ، فن مرن ، وهو بجوهره متنوع المظاهر الى ابعد الحدود ، متعدد الاشكال .

وتصنف الرواية التي اهتمت بالمواضيع الفلسطينية بشكل عام من بين قصة الفكرة « Roman a thèse » لانها تعتمد في بنائها للحادثة وفي تقديمها للشخصيات على الافكار والمواقف ، وهذا النوع من القصص لا يبلغ المستوى الفني المطلوب الا متى قدمت الفكرة بصورة ضمنية ، ومتى انبثقت انبثاقا طبيعيا من الدرام او من نفسية الابطال لا ان تعرض عرضا نظريا ذهنيا تجريديا .

في ضوء هذه النظرة ، نستطيع ان نقسم النتاج الروائي الذي تناول النكبة الى نتاج تقليدي كلاسيكي والى اخر متطور محدث .

وينضوي تحت القسم الاول ، ذلك النوع من القصص الذي لم يتيسّر لكاتبيه فرصة الاطلاع على تيارات الرواية الغربية الحديثة والتمرس بفنونها المستحدثة ، بينما زاوج كتاب النوع الثاني بين المعايشة لواقع النكبة وبين تقنيات الرواية الحديثة في الغرب ، فاتى عملهم ثمرة صراع على مستوى وجودي في معاناتهم لواقع القضية المصيرية ، وفكري في احتكاكهم بالغرب على المستويين الفكري الحضاري ومن خلال الصراع الاستعماري التسلطي الذي حاول من خلالهما السيطرة على هذه البقعة من العالم .

١ ـ تقنية القصة الكلاسيكية

« اذا شئنا ان نقدم ادبا انسانيا شاملا يعبر عن مأساتنا الخاصة في فلسطين علينا ان نتلافى التورط في وهاد السطحية والابتعاد عن العنصر السياسي ، كما يجب علينا الاحاطة الشاملة بكافة ابعاد التجربة وتشابكها المعقد فنحرز اخطر شروط العمل الادبي وهو الصدق الفني ، ويجب كذلك ان نصدر في معاناتنا للتجربة عن وعي عميق بجوهرها الانساني العام الذي ينفذ ببساطة الى ضمير العالم كله. (٢)

وهذا ما لم نشهده في النتاج الكلاسيكي ، فاذا اخذنا قصة « لاجئة » لجورج حنا او « دقت الساعة يا فلسطين » او غيرها من قصص عيسى الناعوري ، نراها قد غرقت في القالب الخطابي والمباشرة السياسية ، اما قصة يوسف السباعي « طريق العودة » فلقد اخلت بشرط الاحاطة الشاملة لابعاد التجربة ، فانت احادية الرؤية مما جعلها تسقط في وهاد السطحية .

هذا من حيث الحكم العام ، اما النظرة المعمقة لعمل جورج حنا « لاجئة » ، فتجعلنا نعتبر هذا العمل نواة أطرية لقصة الفكرة حيث يغلب الموقف النظري على حركة الحياة ، وحيث تتناسى القاص خصوصية شخوصه فيخلع عليهم آراءه ومواقفه مجردا بذلك القصة من اهم صفاتها الا وهي الفنى والتنوع في العرض والاخبار، ويضحي الصراع الدائر نوعا من صراع الفكر والاراء وليس صراعا انسانيا نابضا ، فتفقد القصة بذلك الكثير من حرارتها وتشويقها ويقل تأثيرها في نفوس القراء .

ويوضح محمد نجم طبيعة هذا الفن القصصي فيقول : « ذلك النوع من القصص الذي تكون السيادة فيه لفكرة من الافكار تطفو على سطح الحوادث وتحجب البيئة والشخصيات خلفها . وكثيرا ما تكون الغاية الاولى لقصص كهذه اصلاح المجتمع ... فيسعى الكاتب الى اصطناع الشخصيات وتسخير الحوادث حتى تصور الفكرة الاخلاقية في اجلى مظاهرها . » (٣)

وتعد « لاجئة » من الامثلة الواضحة الدالة على قصور رواية الفكرة في اغناء العمل القصصي ككل وهذا السقوط الفني للرواية يتأتى من النواقص التالية :

١ ـ التعدد في الحادثة ضمن الرواية يؤدي الى تشتيت التأثير الناتج عنها ويضعف الترابط بين اجزاء العمل الواحد .

فالحدث الرئيسي الذي تتمحور حوله الاحداث هو اجتياح

(١) فيزيولوجية القصة : نللي كورمو ـ الآداب العدد ١/١٩٥٤ .

(٢) غالي شكري : ادب المقاومة ص ١٣٠ .

(٣) محمد نجم : فن القصة . ص ٢٣ .

اليهود لفلسطين وطردهم السكان العرب منها وعرض صور المأساة من خلال فتاة فلسطينية هي « سامية » . يحاول الكاتب من خلالها ان يصف صور العذاب والاقتلاع والتشريد التي عانى منها الفلسطينيون وما يزالون ، ولكن ما يقلل من القيمة الفنية لتلك الصور الوصفية هو ذلك السرد التاريخي لوقائع مؤتمرات هيئة الامم المتحدة والدخول في تفاصيل اجتماعات الزعماء والقادة العرب ، هذه الصفحات الطوال الخالية من عنصر التشويق ومن الترابط الكافي مع بقية اجزاء القصة يضعف من عنصر الوحدة العضوية في البناء القصصي الذي يعد عاملا اساسيا في اي خلق فني « ففي الخلق العضوي تنمحي ثنائية الشكل والمضمون ويصعب التمييز بينهما حتى على سبيل التجريد ، فحياة واحدة تشيع في اجزائه جميعا وكل جزء يعتمد على الاجزاء الاخرى وعلى الكل . » (٤)

ويستطيع القاص الاستعانة بمستندات تاريخية في روايته اذا كان لهذه تأثير في سياق الرواية وفي شخصياتها كما فعل نجيب محفوظ في ثلاثيته حين اورد النص الحرفي للتوكيل الذي وقعه الشعب للقيادة الوطنية الجديدة وهذا النص يكاد يكون النص التاريخي الوحيد لاحدى وثائق ثورة مصر القومية .

ولكن عدم تمرس جورج حنا (وهو الطبيب) بفنون الرواية اضعف من قيمة هذه الاحداث فجاءت زيادات ونوافل لا طائل تحتها .

الى جانب الحدث الرئيسي الذي تحدثنا عنه تندرج احداث اخرى فرعية : نهى فتاة المخيم التي يلقيها حظها العاثر في طريق ذئب يفترسها ، فلا تجد من حل لمأزقها سوى الانتحار . اهالي « زبفرون » الذين احتضنوا سامية ورعوها وما يطرأ على حياتهم من تغير وتبدل بتقدم الزمن وتقلب الاحوال ، بالاضافة الى بعض الاحداث الجانبية الاخرى ، هذا التعدد في الحادثة يجعل « لاجئة » من الروايات ذات الحبكة المفككة « وهي التي تبنى على سلسلة من الحوادث او المواقف المنفصلة التي تكاد لا ترتبط برباط ، ووحدة العمل الروائي فيها لا تعتمد على تسلسل الحوادث ولكن على البيئة التي تتحرك فيها القصة او على الشخصية الاولى او الفكرة الشاملة التي تنظم الاحداث اخيرا » (٥) والعامل الذي يجمع الاحداث في « لاجئة » هو عامل الفكرة .

٢ ـ هذا التفكك في بيئة الحادثة ووقت وقوعها ، اضعف مفهومي الزمان والمكان بحيث ان الانتقال السريع من مشهد الى اخر لم يوفر لهما معطيات الاستمرار والتنامي مع الشخصيات ، والتصاعد مع الاحداث .

٣ ـ كانت شخصيات الرواية في معظمها ادوات استخدمها الكاتب للتعبير عن مجمل ارائه « والفن القصصي الصحيح يقتضي المؤلف ان يمحي امام مخلوقاته ، ان ينسى نفسه وان يدع لهم تلقائيتهم ، فعلاقة المؤلف مع اشخاص روايته هي علاقة « الابوة القلقة » فهو ابدا حاضر غائب في قصته . » (٦)

وهذا ما لم يستطع الكاتب تحقيقه ، فأتت الشخصية الاولى « سامية » صورة لما يتطلع اليه الكاتب في الشخص الفلسطيني وما ينتظره منه من مواقف ازاء كل هذه التحديات .

هذا التحكم المباشر بمصائر الابطال افقد (الرواية) ميزتها الحياتية الرئيسية وحيويتها ، وحد بالتالي من تأثيرها وفعاليتها .

٤ ـ اما سياق (الرواية) فلقد اتى سرديا استطراديا مفتقرا في معظم اجزائه الى عنصر التشويق والاثارة ، ناهيك بان استغلال كل حادثة بذاتها قد اضعف من تنامي القصة وجعلها تفتقر الى الذروة او تلك اللحظة الحرجة التي تحبس الانفاس ، واسهمت النتيجة التقريرية التي انتهت اليها هذه (الرواية) بالرغم من ثوريتها ـ في محو كل التوقعات القلقة من نفس القارىء وبذلك خالفت موضوعة رئيسية في البناء (الروائي) هي عنصر التوقع والانتظار الذي من خلاله يتوحد مصير البطل والقارىء في نوع من الوحدة والتواصل الحميم .

٥ ـ اما فيما يختص بالاسلوب او ذلك الجسر الذي يضطلع بايصال معاني الكاتب الى اذهان القراء ، فله اهمية قصوى في كل عمل روائي ، والاسلوب التعبيري لا ينفصل عن المعنى بوجه من الوجوه، وهو يحتاج الى كثير من المران والدربة والصور البيانية المشرقة التي تجمع بين الفائدة القصصية والروعة البيانية .

مع حنا اقتصر الاسلوب على الصيغة السردية الاخبارية ، فكان شديد الاخلاص للواقع ، ولم تستطع لغته ان ترتفع الى المستوى الادائي الخلاق حيث تتساوق الصورة الشعرية والحقيقة الاجتماعية في انسجام تام . فرواية « لاجئة » لا تشكل في هذا المجال سوى اللبنة الاولى في بناء (الرواية) العربية الملتزمة قضية فلسطين حيث كانت الوسائل الفنية ما تزال غير ظاهرة وبدائية ، مما اورث الرواية قصورا ادائيا فاضحا ، حصر قيمتها بالناحية التاريخية دون اي تفرد في عملية الخلق الفني .

اما عمل يوسف السباعي « طريق العودة » فيمكن اعتباره اسهاما في الميدان الروائي الذي تناول القضية الفلسطينية :

١ ـ اراد الكاتب ان يجعل من قضية فلسطين والحرب الاولى التي خاضتها مصر ضد اسرائيل سنة ١٩٤٨ مضمونا لروايتها والمغزى الرئيسي لها ، ولكن الكاتب فشل في المزاوجة او التوفيق بين مضمون الرواية من جهة وبين بنائها الدرامي من جهة ثانية ، فلا يبدو مضمون القصة انبثاقا طبيعيا نستنتجه من مواقف الابطال والشخصيات ، وانما يأتي عاملا اضافيا يحاول تغيير اشكال الوجود السابقة دونما تبرير فني كاف .

لقد حاول السباعي ان يوحد بين الفكرة في القصة والحادثة الرئيسية التي من خلالها تتحدد مصائر الابطال الرئيسيين في الرواية فجعل ابراهيم يستشهد في المعركة التي يخوضها ضد قوى العدوان الاسرائيلية ويجرح مراد جروحا خطرة ، ولكن الافتعال في الحادثة وفي تواتر الاشياء ، افقد هذا كله حرارة الحياة وصدقها وجعلها قليلة التأثير في نفوس القراء .

فما تفتقده « طريق العودة » هو ذلك الكشف العميق لابعاد المأساة التي تعالجها وهو كشف لا يقف عند ظواهر الاشياء بل يتخطاها الى الجوهر ، فلقد اخفق السباعي عندما اراد ان يتمثل عناصر المأساة الفلسطينية تمثلا فنيا ، ربما كان ذلك يرجع لضحالة تجربته ومعاناته لها في هذا المضمار .

٢ ـ استخدم السباعي جميع وسائل التعبير الروائي من المونولوج الداخلي الذي يطالعنا منذ بداية الرواية ، الى السرد المباشر ، الى مشاهد وصف المعارك التي استطاع ان يحقق من خلالها نوعا من النجاح الفني حين جعلها كتلة تلتهب بنيران المعارك وتتوهج بدماء الفداء فاستطاع ان يرتقي بالصورة الوصفية الى التعبير القصصي الناضج .

٣ ـ اما ايقاع القصة فلقد اتخذ نمطين اثنين : ايقاع بطيء فيه الكثير من التطويل والتوقف عند الجزئيات لا سيما في تلك المواقف العاطفية التي جمعت ابراهيم وزوجة مراد ، ايقاع عنيف مدو في لحظات المواجهة والقتال ، ولقد ساعد حسن استخدام الايقاع على اضفاء طابع التشويق عليها ، واتت الخاتمة بما هو خارج توقع القارىء وقد تعاكس رغبته ، فلقد مات ابراهيم الانسان الطيب وبقي مراد نموذج الانسان الاناني الحيواني على قيد الحياة .

---

(٤) خليل حاوي : محاضرات في النقد الادبي ـ كلية التربية الجامعة اللبنانية .

(٥) محمد نجم : المرجع السابق ص ٦٩ .

(٦) فيزيولوجية القصة : مجلة الاداب العدد ١/١٩٥٤ .

٤ ـ اتخذ تحليل الشخصيات الشكل المسطح ، بمعنى انه صور ملامح الابطال الخارجية والمادية وتقصى بعض ملامحهم النفسية ، ولكن دونما تعميق لهذه النواحي ، فهناك مظاهر اضفاها الكاتب على شخصياته دونما تعليل كبير : احتقار مراد لزوجته ، وتعمد الاساءة اليها امام الناس بالرغم من كل صفات البراءة والطهارة والرقة التي اسبغها عليها الكاتب .

٥ ـ تعمد الافتعال في بعض الحوادث افقد الرواية رونقها كالحادث الذي ادى الى انكسار ساق زوجة مراد وبقاء ابراهيم بالقرب منها ، والتصنع في جعل مراد يبيت في غرفة ببنسيون بدلا من احضان احدى الصديقات مما يجعله يعلم بحصول غيره على اوسمة شرف لمعركة خاض غمارها هو وحصد غيره النصر اوسمة وافتخارا .

والحقيقة ان قصة الحب التي نشات بين ابراهيم وزوجة مراد لا اهمية لها الا في اضفاء المزيد من المأساوية التراجيدية على موت ابراهيم .

٦ ـ استخدام الرمز في صورة القبعة العسكرية التي تمثل النضال المسلح والتي تهديها نهى لابراهيم قبيل ذهابه الى المعركة واحتفاظها بها بعد موته ، اتى خاليا من الايحاء الفني والابداع الجمالي .

٧ ـ ما نحفظه للكاتب هو تلك السلاسة والطبيعة في الاسلوب دون التخلي عن عنصر التشويق والاثارة في مجمل مراحل القصة .

ومهما يكن من امر فان « طريق العودة » تشكل مرحلة من مراحل العمل الروائي الملتزم الذي لم تتبلور بعد اشكال التزامه في قوالب فنية متماسكة .

٢ ـ تقنية الرواية المتطورة التي تناولت قضية فلسطين

نقصد بالرواية المتطورة تلك التي تاثر كتابها بالتكنيك الغربي للرواية ، فاتوا بالجديد في كتاباتهم ان من حيث الرؤية الروائية او من حيث التقنية التعبيرية .

ويمكننا ان نقسم من حيث الرؤية الفنية مجموعة الروائيين الذين تناولوا الهزيمة بالتعبير الفني الى تيارين رئيسيين :

اولهما وصلت به التجربة الى تخوم اليأس من قدرة الانسان العربي على الرفض والتخطي ، وذلك نتيجة تكوين طبقي بالغ القلق والترجح والذبذبة ، هؤلاء الذين عكسوا ارتطام التغيير الاجتماعي بواقع من طبيعة تخالف حلمهم مما ادى الى نكوصهم ويأسهم، وتعكس روايات حليم بركات وجبرا ابراهيم جبرا هذا الاتجاه الى حد بعيد .

اما التيار الثاني فقد استطاع عبر تجربته الكلية للمشكلة ان يصل الى حدود الامل المطلق وذلك نتيجة لرؤية نافذة شاملة ولتكوين طبقي مرتبط بالاتجاه القومي ، مما ادى الى بروز فن روائي حاول تمثل الواقع الثوري الى ابعد حدوده فاتت تجربته رائدة في هذا المجال ويمثل نتاج غسان كنفاني هذا الاتجاه اروع تمثيل .

أ) تقنية حليم بركات :

يعكس نتاج بركات القصصي محاولة استيعاب الواقع العربي وتجاوزه في سبيل تغييره من منظار ومفاهيم ثقافية غربية ومبادىء مخالفة للواقع العربي ولمعطياته المختلفة ، مما يساعد على تعميق الهوة ما بين الكاتب من جهة وما بين الواقع من جهة ثانية ، فاتت الكتابة نوعا من الاسقاط الفني والتعويض ، ففي « ستة ايام » يقوم الكاتب بعملية تشريح عميقة لطبقات التعفن والدجل التي ما زال يغرق فيها كثير من النفوس العربية ، وعكست « عودة الطائر الى البحر » ذلك الحس المتوتر العميق بالفاجعة التي قوضت معالم الحياة والنفس العربية على حد سواء ، فبات العربي انسانا فقد هويته ومعالم ذاته، وراح يتخبط في متاهات الخيبة والضياع .

يحاول حليم بركات في روايته الاولى « ستة ايام » كتابة وثيقة اجتماعية تنطلق من معاناة بطله سهيل للصراع الذي تخوضه مدينته « دير البحر » والذي ينتهي في ستة ايام ، بهزيمة ساحقة بسبب تداخل حالتين : الخيانة الداخلية والعربية ، وعدم القدرة على التحديث والتنظيم ، حول هاتين الحالتين نعايش « سهيل » وهمومه وقضاياه . فهو يحب مدينته ويحب شعبه ، ويحاول المستحيل في سبيل الثورة ، فتتحول ثورته الى مجرد ثورة شخصية فردية، وينتهي في النقطة التي انتهت فيها مدينته ، اي في الهزيمة الشاملة والدمار الكامل . (٧)

وتمتاز رؤية بركات القصصية بذلك التوتر الذي يضعك في قمة صراع البطل منذ البداية ، وهذا يرجع الى اختيار الكاتباللحظة الزمنية المشحونة باكبر قدر من التحديات والمكثفة بكل المضامين الصراعية للحياة . فسهيل في « ستة ايام » : « لا يقدر ان يامل او ييأس ، لا يقدر ان يفجر او يستقر ، انه في تمزق ابدي » .

اما رمزي صفدي فتتبلور معالم صراعه عبر الحوار التالي :

ـ انت مسلم .

ـ لا انا رافض ومرفوض ، لست مؤمنا ولكني لست ملحدا .

ـ انت شيوعي .

ـ لا ولكني لست رأسماليا .

ـ انت يميني .

ـ لا

ـ انت يساري .

ـ لا

ـ ماذا انت اذن ؟

ـ لست جزءا من اي شيء ، والذي اعرفه عن نفسي انني رافض ومرفوض .

بهذه النفس الممزقة الضائعة يواجه كل من سهيل ورمزي صفدي تحدي الموت والدمار ، ويخوضان الحرب ويفرقان في مرارة التخلف والفوضى القائدة نحو الهزيمة .

ومن خلال هذه الزاوية الممزقة القلقة يبدا بركات روايته ، وتتشابك الاحداث لتزيد في هذا الحس المتوتر بالفاجعة ، فكانما قد جندت كل العناصر القصصية لتكتشف تلك الرؤية الفنية المتعددة الابعاد لصراع الانسان العربي المثقف ذي الانتماء البرجوازي الصغير الشديد التذبذب والصراع .

وتتوزع السمات الفنية لعمل بركات حول المحاور التالية :

١ ـ يعطي بركات مفهوم الزمان دلالات متعددة ، فهو من جهة يضمنه احساسه بجدب الفترة الحضارية التي تمر بها الامة العربية، ويرمز الى جمود المفاهيم التي تسير الحياة ورجعيتها بالساعة التي توقف عقرباها عن المسير فكانما « دير البحر » بلدة منسية في زوايا الجهل والتاخر والظلام .

هذا من حيث المضمون الرمزي اما من الناحية الفنية فهو يكثف الزمان الى ابعد طاقاته « فستة ايام » محورها الايام الستة فقط التي هدد فيها العدو « دير البحر » وكذلك في « عودة الطائر الى البحر » فالفترة الزمنية للقصة لا تتجاوز الايام الستة للحرب وما تبعها ، وبحددها الكاتب من (٥ الى ١٠ حزيران) ، هذا التعميق للفترة الزمنية يجعل المادة الروائية مكثفة خالية من الحواشي والذيول .

ويعود حسن استخدام الزمن في روايات بركات الى التقاطه لتلك اللحظة الحرجة من حياة الابطال حيث يواجه كل منهم اكبر قدر من التحديات في حياته .

---

(٧) الياس الخوري : البحث عن افق ـ ص ٦٣ .

٢ ـ مع بركات يظهر الرمز القصصي الذي يرتفع بالقصة من مستوى الواقع المادي الى مستوى الايحاء الشعري الخلاق ويخلق هذه العلاقة المتناغمة بين الواقع والحلم ، وكلما كان حس الواقع معمقا نابضا محدثا منح الرمز ابعادا جديدة .

يطالعنا الرمز عبر الصور الشعرية في تشبيه « دير البحر » بسفينة كنعان : « سفينة في أرض كنعان تمخر البحر لاول مرة متحدية الموت » .

ويستقي الدفق الشعري في لغة بركات اصوله ومنابعه من الدفق الشعوري ، ولحظات الانفعال القصوى ، كلصور النابضة الشديدة الاتصال بالواقع (ما رسمه من صور استشهاد فؤاد ورفاقه المجاهدين ـ مشهد ذبح والدة ليليان) وتلك التي تمتزج فيها رؤى الواقع باحساس شعري مرهف (مقاطع لقاء سهيل وناهده) .

٣ ـ الحدث في الرواية هو من نوع الحدث الفذ ، الذي يضع الشخصيات جميعها في تفاعل وصراع مستمر ، وما يميز قصص بركات بشكل خاص هذا السياق القصصي حيث لا نلمح اثرا للعرض او التقديم للقصة وانما تبتدىء الرواية والحدث في ذروته وتتعاقب الفصول والمشاهد حتى تأتي اللحظة الحرجة ، اما الخاتمة فتكون موجزة مكثفة معبرة . فتبرز بذلك خاصية مهمة من خاصيات العمل القصصي عند بركات الا وهي الوحدة العضوية في الاثر الفني التي تجعل منه وحدة كاملة تترابط اجزاؤها ترابطا وثيقا بحيث لا يمكن استبدال موقف بموقف اخر ، او نزع شيء من مكانه دونما تأثير على العمل الفني كله .

ولهذا نرى الاحداث والاشخاص وافعالهم ، تتكاثف كلها منذ البداية بشكل تصاعدي ، لتخدم البناء القصصي العام دونما زيادات وهوامش .

وينطبق رأي محمد نجم في وحدة القصة على « ستة ايام » حيث نرى « قصته بنيت على عمل قصصي واحد يتطور حتى يبلغ النهاية المرسومة والاحداث التي ينتظمها هذا العمل هي حلقات من سلسلة واحدة ، ترتبط برابط السببية ولا نجد في القصة حادثا دخيلا لا يؤدي عملا مهما في تطورها . » (٨)

فوحدة الحدث وتمركز الصراع حول بؤرة واحدة ادى الى خلق ما يسمى بوحدة التأثير التي اعطت القصة قيمتها الفنية الحقيقية .

٤ ـ استخدم بركات الاسطورة في روايته « عودة الطائر الى البحر » اسطورة فلسطين العروس التي اختطفها الضبع (الصهيونية) وعندما حمل الفلسطيني بندقيته في ١٩٤٨ ليسترجع عروسه اطلق النار ولم يصب الضبع . تاه على وجهه مضبوعا تاركا عروسه في المغارة . تسلق شجرة الدول العربية مرة ثانية يهاجم الضبع لا بد له من انقاذ العروس . انها عروسه شرعا وحبا . هل يضبع مرة ثانية ويهيم على وجهه » .

كما زاوج الكاتب بين واقع بلاده وبين اسطورة الهولندي الطائر الذي اقسم على الابحار حول جبل تحيط به العواصف منفيا عن بلاده ، ولن تحل عنه اللعنة الا عندما يجد المرأة التي تخلص له حتى الموت ، كذلك بلاده « تبحر منذ زمن بعيد بلا هدف فوق بحار الخوف والرعب والجهل ويستحيل عليها الوصول الى شاطىء ما . »

وتنتهي الرواية نهاية عبثية وبتساؤل حول مغزى الوجود: « يشعر ان التاريخ عاصفة . حتى الان اختار السلامة والاحتماء والانعزال والتغلف . يجب ان يتعرض ويقتحم يريد ان يكون له ظل . (٩)

ربط بركات رؤية الحرب في آيامها السبعة برؤية عملية الخلق الالهي في التوراة ، ولكن ما خلقه العربي لم يكن خلقا بل كان اجهاضا جديدا لارادة الشعب وخنقا لاماله : « وراى العربي كل ما فعله فاذا هو سيء جدا . » (١٠)

قام بركات بدمج كل هذه المعطيات الفكرية الفنية في قالب من اللغة الشعرية الموحية التي تعتمد ديناميكية العبارة وتكثيفها ، ومن هنا تنبع اهمية قصر العبارات في اتيان المعنى وفي تفجير المضمون الثوري لكتاباته .

وتلخص الاسطر التالية الموقع الذي يحتله فن بركات الروائي : « هو تعبير مباشر عن المثقف المستغرب المستلب الذي ينتقد الواقع العربي من مواقع هامشية يحتلها ضمن اطاره. عالم روايتيه هو عالم البحث عن الخلاص الفردي في سياق خلاص الوطن كمفهوم، فخلاصه ليس انفتاحا على الجماهير انه خلاص يدور حول الانا المثقفة التي لا تعرف شيئا عن بلادها ، وهو محاولة مباشرة لاسقاط الايديولوجية الغربية في الواقع العربي مع رفض عنيف للاستعمار الغربي . » (١١)

ب) تقنية جبرا ابراهيم جبرا :

تمثل قصص جبرا ابراهيم جبرا نموذجا متقدما من الكتابة الفنية الواعية لموضوع فلسطين ، فنلمح في روايته « صيادون في شارع ضيق » التقنية الجديدة في التعبير التي تستخدم صور التداعيات النفسية لتربط الحياة الماضية للبطل وما حملته من مآسي النزوح والتشرد ومقتل الحبيبة تحت انقاض منزلهم الذي نسفته القوى الصهيونية الارهابية وما بين احداث حياته الحاضرة التي تدور في بغداد حيث يشغل منصب استاذ جامعي ويمر بالعديد من التجارب المختلفة التي تغير في حياته وتطبعها بطابعه الخاص .

وبراعة الكاتب في قصته هذه تأتي عبر الكشف عن الازدواجية العميقة التي تعيشها شخصيات الرواية وربطها بالواقع العربي الذي يعيش تجربة الازدواج والتناقض في محاولة لفضح هذه العيوب والعمل على تغييرها ولكنه في الحقيقة لا يخرج من هذا كله الا بخلاص فردي .

فبطل قصة « صيادون في شارع ضيق » ينتهي بانتظار سلافة للزواج منها وهو يقارن بينه وبين بقية شخصيات الرواية فيقول : « خلال الاشهر الطويلة التي تلت وبينما كنا ننتظر وبينما كان امثال عدنان وحسين وتوفيق يقذفون بانفسهم على صفوف من السيوف السياسية والاجتماعية ، كانت الحدات والفربان تطير اسرابا ناعقة فوق غياض النخيل التي تمور ارضا تتجدد ببطء يوما بعد يوم . » (١٢)

الى جانب التداعيات النفسية يستخدم الكاتب تيار الوعي ، حيث يظهر الحوار الداخلي بين الانا العليا وتيار اللاوعي ويظهر تمزق النفس وضياعها ، وهذا الاتجاه في استخدام تيار الوعي للمزيد من التحليل للشخصيات سوف نشهده مطولا مع كنفاني خصوصا في روايته « ما تبقى لكم » .

اما رواية الكاتب الثانية « السفينة » ، فانها محاولة اخرى لاستنطاق الحياة والواقع عبر شريحة من الشخصيات تمثل الطبقة المثقفة العليا من المجتمع محاولا عبر صور التفاعل المتعددة فيما بينها نقصي تناقضات الواقع واشكالاته المختلفة ، والرواية في هذا المجال هي من نوع الروايات التحليلية التي يحتل العنصر البسيكولوجي المكان المفضل فيها وهي لا تخضع للزمن القابل للتحديد ، فان قانونها الاوحد هو الزمن الداخلي الذي يتقلص او يتمدد دونما تاثر كبير بسير الاحداث ، من هنا كان اختيار الكاتب للسفينة كبيئة ملائمة ينعدم فيها الزمن العادي ، والعلاقات العادية وتجمع ما بين افرادها علاقات جديدة قائمة على الذكريات وعلى تفاعل خاص نتيجة الظروف

ـ التتمة على الصفحة ٥٤ ـ

(٨) محمد نجم : فن القصة ـ ص ٣٣ .
(٩) ص : ١٦٢ .
(١٠) ص : ١٤٧ .
(١١) الياس الخوري : البحث عن افق ـ ص ٦٨ .
(١٢) ص : ٢٦٣ .

التقنية في ٥ روايات عن فلسطين

ـ تابع المنشور على الصفحة ١٣ ـ

المحيطة التي وضعتهم وجها لوجه بعضا امام بعض .

والرواية مليئة بالرموز ، فموت الدكتور فالح يعلن انهيار الرؤية المغيرة للعالم وسقوطها امام نقص الواقع وتداعيه ، والدود هو رمز العالم ... الدود يمتد في كل شيء في كل ذرة من الوجود الذي يحياه ابطال الرواية . (١٣) كل ذلك يأتي في قالب من اللغة الشعرية التي طبعت كتابات جبرا منذ اساسها ، فعلينا الا ننسى في هذا المجال ان الكاتب حاول قرض الشعر قبل التمرس بالكتابة القصصية النثرية ، هذا مما غلف اسلوبه بذلك الطابع الشعري الرومانسي الذي اضفى على القصة الكثير من الشفافية والصفاء .

وتقسيم الكاتب روايته الى فصول تدور حول تداعيات عصام السلمان ووديع عساف واميليا فرنزي ، تبين تأثر البناء الدرامي لدى جبرا باسلوب الكاتب الاميركي وليم فوكنر . (١٤) حيث تختلط صور التداعيات النفسية بصوت المونولوج الداخلي لتعكس غنى النفس الانسانية وتوترها وصراعها .

وفي النهاية نستطيع القول ان روايات بركات وجبرا ابراهيم جبرا استطاعت ان تجسد معاناة الفرد المثقف بثقافة اوروبية للنكبة التي ترزح تحت وطأتها الامة ، فادى هذا التفاعل والاحتكاك الى خلق نماذج روائية محدثة كانت حصيلة المعايشة الصراعية للواقع والرؤية الفنية لعالم يتخطى الواقع ويرسمه في اطار حلم قصصي متشابك العناصر والرؤى .

جـ ـ الواقع الثوري وتقنية القصة لدى غسان كنفاني

قد يكون نتاج غسان كنفاني الروائي هو الاجابة عن التساؤل الذي طرحناه في بداية بحثنا ، وهو الى اي حد استطاعت النكبة وابعاد القضية شحن القصة بطاقة تعبيرية جديدة ؟ ذلك ان الفن مع كنفاني عاش الالتحام الصميمي ما بين التعبير الادائي وما بين الواقع الثوري ، مما نتج عنه التزام حميم ما بين الشكل الفني والرؤية السياسية النضالية المعمقة بالممارسة الثورية .

من هنا نستطيع ان نفهم كيف يمكن لنكسة كنكسة حزيران ولحدث على الصعيد السياسي للقضية (ظهور طلائع المقاومة الفلسطينية المسلحة مع بداية عام ١٩٦٥) ، ان يكونا عاملي تأثير وتحويل في الرؤية الفنية والتكنيك التعبيري والبناء الدرامي .

وبذلك نستطيع ان نقسم نتاج كنفاني الى مرحلتين : مرحلة سبقت حرب حزيران وتميزت بالحزن واليأس واستصراخ الهمم بحيث كان الرمز فيها تارة يائسا وطورا متمردا مؤذنا بثورة مرتقبة ويتجلى هذا في « رجال في الشمس » و« ما تبقى لكم ».

اما فترة ما بعد حزيران فهي مرحلة غياب للرمز ، ليحل محله تعبير مباشر وقوي عن الواقع الثوري المعيشي وظهور ما نستطيع تسميته بفن الواقعية الثورية وذلك في كل من « ام سعد » و« عائد الى حيفا » .

ولكن هذا الفصل ليس جذريا بمعنى ان نتاجه الادبي شهد ارتدادات بعد الحرب نحو الرمز والغموض والتعقيد ، كما في اثاره غير المكتملة « العاشق » و« الاعمى » و« الاطرش » يعقبها رجوع الى فن الواقعية الثورية بصفائها وشفافيتها وبساطتها ، كما شهدنا ذلك فيما وصلنا من اثره « برفوق نيسان » .

هذه الاعمال الروائية غير المكتملة هي الدليل الاكبر على ان الخلق المبدع ينتظر الفعل المخلص حيث تحقق التجربة الحياتية والفنية امكاناتها القصوى في ميادين الابداع على الصعيد الذاتي والفني.

يتميز العمل القصصي لغسان كنفاني في « رجال في الشمس » بالميزات التالية :

١ ـ عمل الكاتب على تعميق الحدث الروائي عبر نماذج بشرية معينة حيث تتداخل صور تداعيات الحياة الماضية مع مشاهد المواقف الحاضرة في مونولوج داخلي معذب يزيد من غربة كل من الشخصيات الرئيسية الثلاثة واقتلاعها ، وهي تمثل مجموع الشعب الفلسطيني المشرد .

٢ ـ يتميز البناء الدرامي للرواية بالتشابك فهو عمل معقد الابعاد يعتمد فيه القاص على نوع من الرمزية يمكن تسميته برمزية الحادثة ، فكنفاني لا يعرض للحادثة الاصلية وهي نكبة اللجوء والتشرد التي كانت سبب عذاب الفلسطينيين الثلاثة الا عن طريق الالماح والتصوير الايحائي المعبر ، وهو بوجه الانظار الى حادثة اخطر واكثر مصيرية وهي حادثة الهرب وما يكتنفها من مخاطر وما تشكله من انقطاع بين الفلسطيني وارضه مما يؤدي به الى الموت والدمار المحتمين ، ويساعد توالي الصور والاحداث على خلق التوتر الذي يوحي بتوقع حدث مفاجيء وفاجع ، فكأن كل كلمة وكل لفتة في حياة الابطال تجعل القارىء يتخيلهم بانهم واقفون على شفير الهاوية ، وتأتي الخاتمة لتذكرنا بمأساة وجودنا القومي .

ويقول احسان عباس : « ان قيام القصة على مبنيين خارجي وداخلي يمنح القصة عمقا خاصا ويجعلها مليئة بالايحاءات قابلة للفروض والاحتمالات وبقوة الرمز وتجدد ضروب التفسير تحتفظ القصة بالديمومة وتتجدد منها الطاقات رغم تغير الظروف . » (١٥)

٣ ـ استخدم الكاتب الرمز الموحي المكثف سبيلا للخروج من التجربة الفردية الجزئية الى المعاناة الشاملة الكلية ، واذا اردنا ترصد المبنى الرمزي في « رجال في الشمس » تخرج بالملاحظات التالية :

أ) ابو الخيزران هو رمز للقيادات الفلسطينية التي فضحت الهزائم المتتالية عجزها عن قيادة ثورة الشعب وتحقيق العودة .

ب) يرمز صهريج السيارة الذي مات في داخله الابطال اختناقا الى نوع الحياة التي يحياها ابناء فلسطين بعد النكبة ، حياة مظلمة يظللها الخوف ويجرفها الضياع ، والاستسلام لها لا بد ان تكون نهايته الفناء والدمار .

ج) المهربون البصراويون يمثلون القيادات العربية المتواطئة على سحق الوجود الفلسطيني واخضاعه لسيطرتها .

د) الصحراء هي القبر الكبير والجحيم الذي يبتلع كل الهاربين من مواجهة مصيرهم على ارض وطنهم .

يعرض لنا كنفاني هذا كله في مزاوجة رائعة بين دقة الواقع الحسي والايحاء الباطني والتأثير الخفي غير الملموس الذي يشيع فينا كل مشاعر اليأس والكآبة المفجوعة وعبثية القدر والحياة، هكذا استطاع كنفاني من خلال رموز شخوصه ان يطرق ازمة الوجود الكبرى فما العالم سوى عربة موت جحيمية تسير بالانسان بشكل لا ارادي الى نهايته الاليمة ، من هنا استطاع الكاتب ان يخرج من التجربة الجزئية الى المعاناة الانسانية الكاملة لمعنى الوجود.

يقول علي الجندي في معرض الكلام على رواية كنفاني :

« رجال في الشمس » محاولة جديدة واكثر من ناجحة في تاريخ

---

(١٣) الياس الخوري : ص ٧١ .

(١٤) وليم فوكنر : كاتب اميركي ولد في اميركا الجنوبية عام ١٩٠٧ كتب العديد من الكتابات من اهمها رواية « الصخب والعنف » (The sound and the Fury) نال جائزة نوبل للادب عام ١٩٥٠ ـ كتاباته متأثرة بنظريات اللاوعي والتيار السريالي كما تأثر بالروايات القائمة على استثارة الذكرى والتداعي مثل رواية « البحث عن الوقت الضائع » لمارسيل بروست .

(١٥) احسان عباس : المبنى الرمزي في قصص غسان ـ الاثار الكاملة ، المجلد الاول ص ١٤ .

الرواية العربية وخاصة الملتزمة قوميا فانها عرضت لنا وربما للمرة الاولى قصة الارض السليبة باسلوب بارع وطريقة جديدة ليس فيها روح الافتعال والمحايدة بل فيها كل المأساة بقسوتها ومرارتها تنبض في كل جملة وحرف ، لتسقط معايير النقد امام فوران الحياة » . (١٦)

في « رجال في الشمس » اثبت كنفاني مرة اخرى اهمية التلازم بين الفن وقضية الانسان ، ومدى قدرة الفنان في تسخير فنه لخدمة الشعب مع الاحتفاظ بعنصر الاثارة الفنية والابداع الجمالي.

في « ما تبقى لكم » يبرز لنا العمل الفني الواعي لغسان كنفاني الذي اخذ ينحو منحى التعقيد الفني المتأتي بالدرجة الاولى من التعقيد في الرؤية والتجربة المعيشية ، ويعتمد القصاص منهج العلاقات المتداخلة كما تتداخل الشخصيات فيما بينها عبر تنامي تيار الوعي فيها ، حتى اللغة تكتسب ابعادا جديدة لكي تلبي متطلبات الواقع المتوتر المعقد وتؤمن بالتالي الانتقال من رؤية الى اخرى عبر مجموعة من العلاقات الشبكية الشديدة التعقيد ،حيث يتداخل الزمن الماضي مع الحاضر والمستقبل بشكل عميق ويأتي هذا كله ليكشف الرؤية القصصية التي يطرحها الكاتب من زاويته الحادة.

ويعترف كنفاني في توضيح للقصة بظاهرة التعقيد الجديدة التي ظهرت في روايته فيقول :« ان الصعوبة في ملاحقة عالم مختلط بهذا الشكل هي صعوبة معترف بها ولكن لا مناص منها ايضا اذا كان لا بد ان تقول الرواية ما اعتزمت قوله دفعة واحدة .

ونستطيع ان نجعل هذه الرواية بالملاحظات التالية :

١ ـ يتأثر كنفاني في قصته بمنهج فوكنر تأثرا كبيرا لا سيما في هذا التشديد على التداعيات الداخلية لدى الابطال التي تفضح صور القلق النفسي الشديد التوتر .

٢ ـ القصة تبدأ من حدث معين يعتبر في حد ذاته ذروة في السياق القصصي (هرب حامد من عار اخته بلجوئه الى الصحراء بحثا عن موطن الام التي ترمز الى الوطن) ولكنها لا تلبث ان تتأزم بشكل متوتر حتى تأتي النهاية فتحدث تلك الطفرة المعبرة في سلوك الابطال المؤذنة بميلاد الرفض والتمرد الفلسطيني على الذل والاستسلام .

٣ ـ يتحرك الزمن في اتجاهين اثنين : اتجاه الخلط بين الحاضر والماضي والمستقبل ، والزمن المتحرك ، الذي يجسد مرور الزمن العادي والذي يتجسد بدقات الساعة على الجدار .

٤ ـ تجمع وحدة المعاناة ما بين ابطال الرواية بالرغم من اختلاف الحيز المكاني او الاطار الخارجي الذي يعيشه كل منهم ، ويوحد بينها هذا الايقاع الذي يتردد بدقات الساعة الخشبية المعلقة على الجدار في غرفة مريم فهي تدق في عصبها ووجدانها لتكشف ضياعها وتمزقها ، والجنين الذي يدق يعبر عن مأساة باتت لا تطيق التكتم والتستر ،وكذلك خطوات حامد كانت تدق صدر الصحراء باصرار وتحد عجيبين ،هذا الايقاع الموحد الذي يشيع في كل اركان القصة ليضفي عليها هذه الشحنات من التوتر الدامي الذي ارتفع بعمل كنفاني الى الابداع الفني .

٥ ـ يضاف الى هذا كله تلك الدقة في رسم الاختلاجات الشعورية الدقيقة وظهور التحليل العميق لكوامن النفس الانسانية يساعد على اظهار هذا كله قوة بيانية في رسم الصور وايراد التعبير المؤثر الموجع .

ونستطيع في النهاية ان نوجز حكمنا على عمل كنفاني بالقول: « ما تبقى لكم » تمثل تجرد النفس الفلسطينية من كل السلبيات الثقيلة التي كانت ترزح تحتها ، هي صلة جديدة بالواقع والارض تلد الادارة العازمة وان كانت الولادة بطيئة عسيرة . وهي نظرة وداع غير آسفة نحو ماض يتوارى ويغيب » . (١٧)

في « عائد الى حيفا » يسلك غسان كنفاني طريقا مغايرا للطرق الفنية التي سبق له ان سلكها في اعماله الاخرى فهو لا يتوجه الى الرمز الشفاف الذي عرفناه في « رجال في الشمس » ،ولا يتوجه الى التركيب المعقد الذي عرفناه في « ما تبقى لكم » وانما ينحو نحو البساطة التي تقترب من تخوم الرواية التقليدية .

والقصة تبدأ كغيرها من موقف يفجر كل تناقضات النفس وحناياها المختلفة . انها عودة « سعيد س » وزوجته من جديد الى حيفا بعد سني الفراق الجبرية وما يمكن ان تجره هذه العودة من عذاب ولواعج وذكريات وحنين .

تندرج رواية « عائد الى حيفا » ضمن الرواية التحليلية الكلاسيكية البسيطة ، حيث لا تشكل القصة سوى اطار عام يحاول المؤلف من خلاله ان يعكس مجمل افكاره ومواقفه الشخصية ، ولكن السلاسة في السرد والطبيعة في الاخبار والقص الى جانب التحليل الدقيق للشخصيات وسبر المشاعر والاحاسيس الانسانية المختلفة من ذكرى وشوق وذل وعار ونقص ـ هذا الوصف الدقيق لعناصر القصة من بيئة وزمان واشخاص ، جعل من القصة كتلة حية نابضة ، وجعل الجزء الاول من الرواية يتمتع بدرجة كبيرة من الصدق والبراعة في التصوير اللذين رفعاه الى مرتبة عليا من الخلق الفني .

اما الجزء الثاني من الرواية فيعتبر اضافة نظرية لم تخدم الجوهر القصصي بقدر ما خدمت فكر غسان والتزامه وموقعه من القضايا فهي تكاد تكون محاورة نظرية يراد من خلالها لفت النظر الى مواطن الضعف والداء في النفس العربية .

ولقد جعل كنفاني من الحدث والشخوص مجرد رموز في خدمة الرؤية الفنية المطروحة وجاء هذا على حساب مهمات الرواية الاولية . وهذا ما اضفى عليها طابع المباشرة الفنية فجعلها تقريرية، يختفي منها هذا الحس بالتوتر والتوقع ، فالنتيجة منطقية يصل اليها القارىء عبر رؤية موضوعية للاحداث .

من اجل الفكرة ضحى الكاتب ببعض القيم الفنية فوقعت بعض المفارقات التي قد لا تقبل بصورة مباشرة مثل :

ـ الزوجة تارة لا تفهم الانكليزية وتارة تفهمها .

ـ مصادفة استحواذ منزل البطلين من قبل مهاجر يهودي وزوجة عاقر مما سهل عملية التبني للطفل .

ـ قيام موازنة بين معادلة قتل طفل فلسطيني ومعادلة قتل شقيق مريام على ايدي الفاشيين الالمان شيء مستهلك ومكشوف ولا يحمل كشفا او مضمونا جديدا .

وبالرغم من هذه السقطات فنحن لا ننكر اصالة عمل كنفاني، فهو يحمل بين طياته بذور رواية ذات نفس طويل ولكن السرعة في عرضها جعلتها تقع في المباشرة التقريرية الفكرية .

مع « ام سعد » يبلغ الواقع مع كنفاني حد الاكتناز والاكتمال، وهو الذي شهد ميلاد الثورة المقاومة التي كانت المنبع الاصيل لعمل غسان المذكور .

هنا ينتفي الرمز ويترك الكلام للحقيقة المحركة الباعثة للامل التي تشع في كل فرد من افراد القصة .

مع « ام سعد » نحن وجها لوجه امام الحكمة الشعبية البسيطة التي ترتسم على شفاه « ام سعد » الشعب والامة . فليس للقصة من حبكة رئيسية وانما هي تنامي الحياة الفلسطينية في المخيمات

---

(١٦) علي الجندي : مجلة حوار عدد ٣ نيسان ١٩٦٣ .

(١٧) احسان عباس : المصدر نفسه .

ورسم خط الوعي فيها في فترة تعتبر من اكثر الفترات خطورة واهمية في حياة الامة وعلى صعيد مستقبلها . هـذا التنامي نلمسه عبـر الصور التاليـة :

ـ « ام سعد » تبدو يائسة في البداية ، ولا تخرج الى فضـاء الامل الا من خلال التزام سعـد ورفقائه مهمـة النضال الثوري المسلح.

ـ حياة المخيمات تحولت من الاستسلام والرزوح تحـت وطـأة البؤس والظلام الى حيـاة متمردة تلمع فيهـا اصوات البنادق التي وحدها سوف ترسم طريق العودة .

ـ انعكست هذه التحولات على العلاقات الانسانية بيـن سكـان المخيم : « فجـاة تغيـر كل شيء . كف ابو سعـد عن الذهاب الـى المقهى وصار حديثه لام سعـد اكثر ليونـة ، بل انـه ذلك الصبـاح سالهـا ان كانت ما تزال تتعب ، وابتسم طويـلا حيـن رمقته متسائلة عـن السبب فقد كان ياتي دائمـا منهكا ، ويطلب طعامه بسؤال فظ ويكاد ينام وهو يعلك لقمته الاخيرة » .

هكذا تشكل « ام سعد » اخطـر وثيقـة فنية تحمل صورة تلك الطفرةالتي نقلت الشعبالفلسطينيمن دائرة الذل والخنوع والنكسات المتتالية الى دنيـا الثورة والتمرد والارادة المخلصة في بناء مستقبل جديد مشرق للامة واعادة الاعتبار للذات الفلسطينية الممزقة .

وفي ختام هذا البحث نستطيع ان نورد بعض الملاحظات العامة حول الفنية المتطورة لهذه الرواية التـي تناولت قضية فلسطين مـا بعـد حزيران بالنقاط التاليـة :

١ ـ قامت الرواية العربية بعد نكسة حزيران بصياغة تطلعـات الوجدان العربي ، فبعضهم صاغها سلبا وبعضهم صاغها ايجابا واخرون وقفوا بيـن بين ، ولقد مثلت هذه الروايـة الوثيقـة الفنيـة الاولى لاخطر مراحل تاريخنـا .

٢ ـ تميزت هذه الرواية بالكثافـة الشعرية التي تنبثق مـن الاختبار الحساس لجزئيـات الواقع الملموس والارتفاع بهـا الـى مستـوى الرمز .

٣ ـ الحدث في الرواية ليس الواقعة المتطورة طوليـا مع الزمن التاريخي وانما هو الموقف المتجـذر في اعماق حياة الابطـال والـذي يفجر تناقضاتها وتمزقها ، فالاطار العام هو النكسة ولكن الجديد ينبع من مواقف الاشخاص تجاهه .

٤ ـ الرؤيـة الغالبة على هذا النتاج هي رؤيـة المثقفين او على وجه التحديد رؤيـة المثقف البرجوازي الصغير سواء أكان متقوقعا على ذاته ام مناضلا ثوريـا ملتزمـا .

٥ ـ يشكل هذا النتاج ظاهرة روائية جديدة تلازمت داخلهـا عناصر التجديد في الفن ، هذا التلازم الذي يدفع الفن القصصي الى الامام ويؤدي الى قيـام روايـة عربية جديدة .

ونستطيع القول ان كنفاني تفاعل مع الواقع والرؤية الثوريـة فتاثر بهـا واثر عليهـا .

* * *

وفي ختام هذا الحديث عنتقنيةالرواية التي تناولت قضيـة فلسطين ، ينبغي ان نوضح ان البحث كان قاصرا على نماذج روائيـة معينة دون التفات واف الى القصص القصيرة التي تشكل تيارا مهمـا يكـاد يختط له فنا قائمـا بذاته يقوم على تقنية معينة ، لا سيمـا ان هذه القصص القصيرة اخذت تستوحي الحرب الاخيرة ،وتاخذ مـن معانيهـا مضاميـن جديدة لها ، فتكشف لنـا عـن افق الروح الجديدة التي بدأت تهيمن على الوضع العربي وتنعكس على حياة الفلسطينـي بوجه خاص ، هذه الروح الجديدة التي ولدت رؤية فنية جديدة ، فهي شيء من الارتداد الى دنيـا الرمز وذكريات النكبة الاولى . ونلمحهذه السمات خاصـة في القصص القصيرة التي تنشر على صفحات المجلات ونستطيع ان نأخذ مثـلا عليهـا قصـة محمود الريماوي « الرصاصـة الرابعة » (١) التي فيهـا يحاول ان يعري الحرب الاخيرة ، وان يشير الى انهـا ، وان حملت حلولا معينة على الصعيد العربي ، فهي لـم تحمل شيئا جديدا على الصعيـد الفلسطيني ، وانمـا هي عمقتالهوة بينه وبين الاخرين ، كل ذلك في اطار من السرد تمازجـه الذكريـات وصور الحلم ، حيث تتداخل عوالم من اللاوعي لتسهم في رسم صورة تنبؤية لما سيكون عليه واقع الفلسطيني فيما بعد .

بيـروت

---

(١٨) نشرت في الاداب العدد السادس حزيران ١٩٧٤ .

دار الاداب تقـــدم

سليمان فياض

فـي

زمن الصمت والضباب

مجموعة قصص جديدة

صدرت حديثا